

كُتَابَةُ حَجْرِ حَفْنَةِ الأَبْيَضِ

بقلم الدكتور مصطفى جواد

- أقدم شكرى الى مديرية الآثار العامة (قبل الكلام فى تاريخ حجر حفنة الابيض) على عنايتها بنشر أمثال هذا البحث الذى ، على قصره واختصاره ، يمدنا بمعرفة تاريخية جزيلة الفائدة ، وأود أن لا يخلو جزء من سومر من نشر بحث من الكتابات المعثور عليها فى أثناء التفتيش والتطواف ، فى مستقبل الزمان ، ككتابة الباب الوسطانى وكتابة الممتازة العتيقة فى حضرة الشيخ عبدالقادر الجبلى المعروف عندنا بالكيلانى .
- « حضر ضبة بن محمد بن يزيد الاسدى (؟) ضبة بن محمد بن يزيد الاسدى (؟) سنة ست وخمسين وثلاثمائة وله أوال (؟) ثلاثين سنة وكتب بخطه » .
- والقراءة الصحيحة عندى هى : « حضر ضبة بن محمد بن يزيد الاسدى العينى سنة ست وخمسين وثلاثمائة ، وله اذ ذلك ثلاثين سنة وكتب بخطه » .
- وبيان ذلك أن « ضبة العينى » المنسوب الى بلدة « عين التمر » حضر فى ذلك الموضع سنة « ٣٥٦ هـ » وله من العمر يومئذ ثلاثون سنة .
- وضبة الاسدى العينى هذا من المشهورين فى تاريخ العراق شهرة سيئة ، فقد ذكر مسكويه فى حوادث سنة « سنة ٣٦٣ هـ » أى بعد كتابة الحجر المقدم ذكره بثمانى سنين أن عزالدولة بختيار ابن معزالدولة احمد البويهى ملك العراق ، لرغبته فى
- ان حجر حفنة الابيض يوضح لنا جانبا من استبهام تاريخ « حصن الاخضر » الذى لا يزال مفتوح المجال للتحقيق والبحث ، والتدقيق والتحرى الدقيق ، لاختلاف الآراء فيه .
- ذكر السيد الفاضل عز الدين الصندوق ما معناه أن حصن الاخضر على مسافة نحو من ثلاثين كيلو مترا من حجر حفنة الابيض (١) من الشرق ،
- (١) سومر ج ٢ ص ٢١٥ مج ١١ سنة ١٩٥٥ .

في اخماد ثورة القائد التركي الفتكين واعتصامه ببغداد كاتب « ضبة بن محمد الاسدي » بأن يشن الغارات على أطراف بغداد ويمنع من جلب الميرة اليها ، قال مسكويه : وضبة رجل من أهل عين التمر كثير العشائر وقد جرت عادته بالتبسط ففعل ووجد الطريق الى بغيته فنهب السواد وقطع السبل (٢) .

وذكر أبو الفرج بن الجوزي الخبر بأوضح وأبسط مما ذكره به مسكويه ، قال في حوادث سنة « ٣٦٩ هـ » : « وفي شهر رمضان بعث الى ضبة بن محمد الاسدي ، وكان من أكابر الذعار وقد قتل النفوس ونهب الاموال وتحصن بعين التمر ، نيفا وثلاثين سنة والوصول اليها يصعب فلما أطل عليه العسكر هرب وترك أهله وخاصته فأسر أكثرهم وملك البلد (٤) » .

وزاد عليها عز الدين بن الاثير شيئا في حوادث السنة المذكورة أيضا قال : « وفيها أرسل سرية الى عين التمر وبها ضبة بن محمد الاسدي وكان يسلك سبيل اللصوص وقطاع الطريق ، فلم يشعر الا والعساكر معه ، فترك أهله وماله ونجا بنفسه فريدا وأخذ ماله وأهله وملك عين التمر ، وكان قبل ذلك قد نهب مشهد الحسين - رض - فعوقب بهذا » .

واذ دام تحصنه بعين التمر نيفا وثلاثين سنة على قول ابن الجوزي لزم أن يكون ابتداء عصيانه الدولة في الاقل سنة « ٣٣٨ هـ » ، واذا كان عمره سنة ٣٥٦ « ثلاثين سنة » لزم أن يكون عمره في سنة ابتداء العصيان « اثني عشرة سنة » وهذا غير ممكن . فيكون قول ابن الجوزي من الأقوال التي لم تسلم من المبالغة .

ويظهر لي أنه كان متحصنا في حصن

وذكر عز الدين ابن الاثير في حوادث سنة « ٣٦٤ » تحت عنوان « استيلاء عضد الدولة على العراق وقبض بختيار ، خبر ضبة الاسدي قال : « ووصل ألفتكين الى بغداد ، فحصل محصورا من جميع جهاته وذلك أن بختيار كتب الى ضبة بن محمد الاسدي وهو من أهل عين التمر ، وهو الذي هجاه المتنبى ، فأمره بالاغارة على أطراف بغداد وبقطع الميرة عنها » .

ويظهر من مضمون الحوادث التاريخية أن « ضبة بن محمد الاسدي » هذا لم يقف فسادا على نهب القرى والمسافرين بل تعدى الى مشهد الامام الحسين بن علي بن أبي طالب بكر بلاء حتى أرسل عليه عضد الدولة فرقة من جنده ، فهرب الى البادية . والموضع الذي فيه حجر حفنة الابيض كان من ملاحته أيام هربه الى البادية كما يبدو من كتابته فيه ، قال مسكويه في حوادث سنة ٣٦٩ هـ : « وفي هذه السنة نفذ عسكر الى عين التمر في طلب ضبة بن محمد الاسدي - وقد مر ذكره وأنه ممن يسلك سبيل الدعارة ويسفك الدماء ويخيف السبل وينهب القرى ويبيع الاموال والفروج وانتهك حرمة المشهد بالحائر - فلما أطل

(٣) تجارب الامم « ج ٦ ص ٤١٤ » .

(٤) المنتظم « ج ٧ ص ١٠٠ - ١ » .

(٢) تجارب الامم « ج ٦ ص ٣٣٨ » طبعة شركة التمدن بمصر سنة ١٩١٥ .

الاخضر ، وقد استدلت على ذلك بما جاء في
خبره مع أبي الطيب المتنبي الشاعر المشهور وبقره
من مقام ضبة في البادية حيث الحجر المذكور ، فقد
ورد في ديوان هذا الشاعر ما هذا نصه :

« وكان قوم من أهل العراق قتلوا [محمد]^(٥)
ابن يزيد العيني و ... امرأته ، ونشأ له منها ولد
بالعين^(٦) يسمى « ضبة » يغدر بكل من نزل به
أو أكل معه أو شرب • واجتاز أبو الطيب بالطف
فنزل بأصدقاء وسارت خيلهم الى هذا العبد
واستركبوه ، فلزمه المسير معهم ، فدخل العبد
الحصن وامتنع به واقاموا عليه أياما لا سلاح له الا
شتمهم من وراء الحصن أقبح شتم ، ويسمى أبا
الطيب ، ويشتمه^(٧) • واراد القوم أن يجيئوه
بمثل الفاظه القبيحة وسألوه^(٨) ذلك ، فتكلفه
لهم على مشقة وعلم أنه لو سبه لهم معرضا لم يعمل
فيه عمل التصريح ، فخاطبه على ألسنتهم من حيث
هو ، فقال في جمادى الآخرة سنة ثلاث وخمسين
وثلاثمائة :

ما أنصف القوم ضبته وأمه الطرطبه
وانما قلت ما قلد ... رحمة لا محبة
وما عليك من القتد سل انما هي ضربه
وما عليك من الغد ... ر انما هي سبته
وما يشق على الكلد • بأن يكون ابن كلبه
يلوم ضبة قوم ولا يلومون قلبه
وقلبه يشهى ويلزم الجسم ذنبه

غناه ضيح وغلبه
أباتك الليل جنبه
الذي يغالب ربّه
اذا تعود كسبه
••• ل سرية بعد سريره
أين خلف عجبه
لطالما خان صحبه
وقد تبنت رعبه
نفتك عنه مذبه
فصرت تضطرب رهبه
حملت رمحاً وحربه
عنان جرداء شطبه
فأنها دار غربه
فانها لك نسبه
تكشفت عنك كربه
فانه بك أشبه^(٩)

وجاء في نسخة أخرى من الديوان ما نصه
« وكان قوم من أهل العراق قتلوا أبا ضبة يزيد بن
العيني ... أمه وسار اصدقاء أبي الطيب لمحاربة
هذا العبد وسألوا أبا الطيب المسير معهم ، فأجاب
الى ذلك فلما نزلوا به تحت حصن هو فيه جعل
يشتمهم أقبح شتمة ويسب أبا الطيب ، فسألوا أبا
الطيب أن يهجوهم ، فعلم انه ان سبه معرضا لم يفهم ،
فقال أبو الطيب : ما أنصف القوم ضبة^(١٠) » •
وورد في نسخة ثالثة « وقال يهجو ضبة بن
يزيد العيني الكوفى ويصرح بشتمه لانه لا عقل

(٥) في ديوان المتنبي طبع الاستاذ عبدالوهاب

عزام « ص ٥١٤ » « قتلوا يزيد الضبى » وهو خطأ •

(٦) أى بعين التمر •

(٧) أى يسبه بتصريحا وتخصيصا لا عموما •

(٨) أى سألوا المتنبي •

(٩) نسخة خطية بدار الكتب الوطنية بباريس

أرقامها ٣٠٩١ الورقة ١٩٥ - ٦ •

(١٠) نسخة خطية بدار الكتب الوطنية

بباريس أرقامها ٣٠٩٥ الورقة ١٣٢ •

له يعرف به التعريض ... (١١) « وفي نسخة رابعة (١٢) .
وجاء في شرح ديوان المتنبي لعفيف الدين علي بن عبدلان الموصلى المنسوب غلطا الى أبي البقاء العكبرى : « وقال يهجو ضبة بن يزيد العتبي (كذا) وصرح بتسميته فيها لانه كان لا يفهم التعريض ، كان جاهلا ، وهذه القصيدة من أردأ شعر المتنبي ، ما أنصف القوم ضبة ... ضبة اسم الرجل المهجو . يجوز أن يكون اشتقاقه من الضبة وهي الطلعة قبل أن تنفتح أو من ضبة الحديد أو يكون سمي بأثنى الضب أو من ضب لثته : اذا سال لعابه » (١٣) .

ومما يؤيد قولي ان الحصن المذكور في هذه الاخبار هو « حصن الاخضر » كونه من الحصون العظيمة التي يهتم بها الملوك ويلجأ اليها الامراء والرؤساء للتحصن ، قال سبط ابن الجوزي في خبر استرجاع طغرل بك السلجوقي للعراق من الثائرين سنة « ٤٥٠ هـ » ما هذا نصه « وفي هذا الشهر [صفر] أنفذ أهل شفانا وقلعة العين التي لمحمود بن الاخرم أمير بني خفاجة وهي معقل الخفاجيين الى السلطان طغرل بك ، فسلموها اليه فأعطاهم أنوشروان ابن زوجته فتسلمها أصحابه (١٤) » . والسبب كان قد ذكره في

وأعود الى قول السيد الفاضل عز الدين الصندوق « في أثناء تجوالي في عين التمر (شفانة) العائدة الى مركز لواء كربلاء » . وهذا القول غلط من حيث جغرافية العراق القديمة لان « شفانا » كانت قرية من قرى عين التمر ولا تزال قرية ، بعد خراب عين التمر ، قال ياقوت الحموي في معجم البلدان « عين التمر : بلدة قرية من الانبار غربي الكوفة بقربها موضع يقال له « شفانا » منهما يجلب القسب والتمر الى سائر البلاد وهو بها كثير جدا وهي على طرف البرية » .

ولشفانا ذكر كثير في كتب التاريخ لا نود التطويل باستقصائه وقد ظننا كاي لسترنج غير موجودة قال « وعين التمر وهي في جنوب هيت في البادية قال المقدسي : انها بلدة حصينة ويخرج من عين التمر نهر يمر بارضها ويصب في الفرات أسفل من مدينة هيت ومنها يحمل القسب والتمر الى سائر البلاد ومن موضع يقال له شفانا بقربها ، على أن موضع هذين غير معروف » (١٦) .

قال هذا مع أن « شفانا » معروفة ولا تزال

(١٥) « مرآة الزمان » نسخة دار الكتب الطونية ببائيس ، أرقامها ١٥٠٦ الورقة ١٨ .
(١٦) بلدان الخلافة الشرقية « ص ٩٠ » من الترجمة العربية .

(١١) نسخة خطية بدار الكتب الوطنية ببائيس أرقامها ٣٠٩٦ الورقة ٢٨ .
(١٢) نسخة خطية بدار الكتب الوطنية ببائيس أرقامها ٣٠٩٧ الورقة ٢٥ .

(١٣) شرح ديوان المتنبي « ج ١ ص ١٢٩ » المطبعة الشرقية بمصر سنة ١٣٠٨ هـ .
(١٤) « مرآة الزمان » نسخة دار الكتب الوطنية ببائيس ، أرقامها ١٥٠٦ الورقة ٤٥ .

مسكونة معمورة وقد سميت عين التمر غلطا •
 ان ما قدمته من أخبار ضبة بن محمد بن يزيد
 الاسدي يجعلنا في غنى عن قول السيد الصدوقى
 « ومهما يكن من الامر فاحتمل أن تكون القراءة
 الصحيحة لهذه الكلمة بشكل (حضر) والمقصود
 بها أن ضبة بن محمد بن يزيد الاسدي قد مر
 بحفنة الابيض ودوتن اسمه على هذا الحجر فان
 هذا المكان تمر به القوافل المنتقلة بين العراق
 والحجاز حتى يومنا هذا • • • » • فقد أثبتنا أن
 ضبة كان من غير أهل القوافل وأنه كان يمعن فى
 البادية هربا من طلب الدولة له فيقيم عند حجر
 حفنة الابيض كما تدل كتابته وفى غيره من
 المواضع •

ونعطف القلم الى الكتابة الثانية على حجر حفنة
 الابيض ، لنسجل عدم امكان رجوع الكتابة المذكورة
 الى القرن الاول من الهجرة (١٧) ، كما جاء فيها ،
 على أن « بنى الاسعد » الذين انتسب اليهم الكاتب
 كانوا بالبصرة قال البلاذرى : « قدم الاخطل
 البصرة على بشر بن مروان بن عبد الملك وقد
 حمل ديات عن قومه فأتى بنى سدوس وفيهم سويد
 ابن منجوف ورجل من بنى أسعد بن همام ،
 فسألهم ، فقال له « الاسعدى » : ألسنت القائل :

اذا ما قلت قد صالحت بكرا

أبى الاضغان والنسب البعيد

وأيام لنا ولهم طوال

بعض الهام فيهن الحديد

ابن الفوطى قال :
 « مجاهد الدين أبو منصور قايماز بن عبدالله
 الزينى الموصلى الاديب المقرئ (كذا) دزدار
 الموصل : ذكره صاحب بهاء الدين محمد بن
 حمدون فى تذكرته (١٩) وقال :

كان مجاهد الدين قايماز كلفا بحب الحسنات ،

(١٨) انساب الاشراف « ج ٢ ص ١٧١ » من

طبعة الجامعة العبرية •

(١٩) ان صبح أنه نقل من كتاب التذكرة

لابن حمدون فان كثيرا من هذه الاخبار الخاصة

بسيرة قايماز نقلت من كتاب آخر لان ابن حمدون

توفى قبل البدء بعمارة الجامع بسنين ، ولعل

(١٧) وذلك لهندامها ووجود اللحن فيها

« الله وكبير كبير » أى الله اكبر كبيرا ووجود

تشابه بينها وبين الكتابة التى تليها التى هى من

القرن الرابع للهجرة •

وعاكفا على فعل الخيرات ، فمما شاهدته من ذلك . الموصل جامعا ورباطا للصوفية وبممارستانا
 أنه كان موثلا لكل وافد اليه من بلادنا العراقية ، للمرضى . غرم على ذلك ما ينيف على مائة ألف
 وملجأ لكل خائف يصل اليه منها . واما ما منحه دينار ، ونصب على دجلة جسرا من الخشب وأوقف
 الله - تعالى - من بذل الاموال وانفاقها في عمارة على هذه الوجوه أوقافا كثيرة يحصل منها في السنة
 بيوت الله - عزوجل - وتجديده الرباطات عشرة آلاف دينار واكثر ، وكان عاقلا فقيها واليا
 والمدارس والجسور والقناطر . وعمر بظاهر بالموصل . توفي سنة خمس وتسعين
 وخمسمائة (٢٠) .

ابتداء المرجع الآخر من قوله « وأماما منحه » .
 أو لعل مرجعه تاريخ ابن صاحب التذكرة (تاج الدين الحسن بن محمد الاديب المؤرخ المشهور) .
 (٢٠) تلخيص معجم الالقاب « ج ٥ الترجمة
 ١٤٢ من باب الميم « طبعة لاهور بالبنجاب .



مركز تحقيقات كميوتور علوم إسلامي